فنانى : مشكاة العلوم الدينية فى كيرالا

حمزة الرحماني

يمتاز أبناء الأمة في كيرالا بتراثهم العلمى الديني كما يستحقون الميزات بحضورهم وثقافتهم ووعيهم الإسلامى . واعتنقوا الدين والثقافة ورضعوا بلبانها فى القرون الأولى الهجرية أقدم وأكثر ممن في سائر أنحاء شبه القارة الهندية ، كما بذلوا قصارى جهودهم فى سبيل النشر العلمى ونموه . وهم اقتفوا فى سبيله الخطوات التربوية الشريفة التى لا نظير لها فى تعليم الأمور وترويجها فى تاريخ الإنسان قديما و حديثا.

والطلاب يغدون ويروحون من جهات مختلفة ويجتمعون فى مكان واحد هو المسجد ويقيمون ويدومون فيه ويدورون حول مرشد كريم ليلا ونهارا .والمرشد يعلمهم ويزكيهم وينصح لهم فى كل امورهم . والذين يسكنون حول المسجد ومركز العلوم يعينون هذه الطلاب ويطعمونهم ويقضون حوائجهم ولو كان بهم خصاصة .فى هذه المدرسة النبوية لا يؤدي الطلاب شيئا مشروطا على التعليم ، والمدرس لا يطلب منهم ولايقبل راتبة معينة شهريا ولا سنويا . هذه هي صورة المكتب الأول ومدرسته فى المدينة الطيبة .

والقدماء نفذوا هذا النظام التعليمي فى كيرالا واتبعوا فيه آثار النبي صلعم الكريمة . وأوقدوا مصابيح النور العلمي الديني في كل محلات ومساجد وبنوها على اوفربيئات وشواكل موافقة للتعلم والتعليم وسكون طلابها . لا يوجد وثائق معتمدة تاريخية وشواهدها متى وأين ابتدأ الدرس المسجدى فى الولاية أولا ، إلا أن مدينة فنانى تحمل تراثا زاخرا وثروة عالية فى العلوم الدينية ونشرها وترويجها حتى عرفت ووصفت عنها في التواريخ "مكة كيرالا."

قد نال فنانى مكانته العلمية فى التاريخ بعلمائه البارزة المشهورة بالمخدوميين الذين يعدون اعلاما فى النشاطات العلمية والدعوية والتربوية فى كيرالا .والمخدوميون

كانوا فضلاء من أسرة عريقة مباركة قامت بالدعوة والتزكية فى مناطق شواطئ تاميل نادو وكانوا يلعبون بدورهام فى قيادة أمورهم الدينية والدنيوية بها.

وفي طلوع القرن الخامس عشر الهجري وصل منهم الشيخ أحمد المعبرى فى كوتشن . وهذا الشيخ كان أول المخدوميين وصلوا فى كيرالا . وكان ابنه إبراهيم المعبرى عالما نحريرا عميقا فى الشريعة الإسلامية ، تولى منصب القضاء في منطقة كوتشن .وبعد مدة قليلة غادر كوتشن ووصل فى فنانى ، إثرها ألجأه أهله إلى منصب قضائهم وقيادتهم الدينية الروحية والعلمية . وأخوه الشيخ علي ابن أحمد المعبري كان عالما وجيها أيضا وماهرا فى المذهب الشافعي بين أقرانه .

وابن الشيخ علي المعبري الشيخ زين الدين ابن علي بن أحمد المعبرى رافق عمه ابراهيم المعبرى فى سفره الى فنانى مع أنه كان صغيرا . هوالذي يعرف في التاريخ باسم زين الدين المخدوم الاول أو الكبير. كان مولده فى كوتشن سنة ١٤٦٧م .

قد تم تعليمه الابتدائي في فناني من عمه الشيخ إبراهيم المعبري، وبعده وصل إلى مكة للتعليم العالي بعد ما قرأ على الشيخ أبي بكر فخرالدين بن القاضي رمضان الشالياتي من كاليكوت، والشيخ زين الدين الكبير، واتصل من حرم مكة بالأئمة الفضلاء في زمانه مثل الشيخ جلال الدين السيوطي والسيدأبي بكر الحضرمي والإمام الشيخ أحمد بن شمس الدين، رحمهم الله، والشيخ كال الدين الدمشقي والإمام نور الدين المحلي كانا زميليه في حرم مكة. بعد ما قضى ما قدره الله في مكة، غادرها إلى مصر ليروى من منهل أزهره الشريف بالقاهرة، ومن جامعة الأزهر قرأ الشيخ زين الدين الكبير علوم الحديث على الشيخ القاضي عبد الرحمن المصري، وتتلمذ هكذا الشيخ شمس الدين محمد جوجري والشيخ زكريا الأنصاري والشيخ كمال الدين أحمد أبي شريف رحمهم الله.

أخيرا رجع الشيخ الكبير بعد رحلته التعليمية الطويلة إلى فناني وبنى هناك مسجدا بعد ما راحع عنه أمرائه الفضلاء. هذا هو المشهور بالجامع الكبير الفناني. وأسس الشيخ زين الدين الكبير فيه درسا عظيما على منوال النظام التعليمي الأزهري، وتولى مسؤولية التدريس. هذا الدرس الجديد نال صيته وشهرته في أنحاء العالم الإسلامي على الرغم من قلة مدته وصغره، والطلاب قصدوا فناني من داخل الهند وخارجه مثل سيلان وجزر مالوي وجاوى وسماترا من إندونيسيا.

توفي الشيخ رحمه الله سنة ١٥٢٢ في سابع وخمسين من عمره بعد ما قام بنشاطاته المتنوعة في مجال التعليم والتأليف، وخدماته الدعوية والتربوية والإصلاحية. صنف الشيخ رحمه الله عدة مصنفات قيمة في موضوعات شتى من الفنون والعلوم الشرعية، ومن بينها: كتاب مرشد الطلاب، وسراج القلوب، وشمس الهوى، وتحفة الأحبة، وإرشاد القاصدين، وشعب الإيمان، وهدية اللأذكياء. وكتابه "تحريض أهل الإيمان على جهاد عبدة الصلبان" يمتاز بمحتوياته ونظرياته الوطنية.

والشيخ زين الدين المخدوم الثانى يتنور فى التاريخ بصيته وشهرته فى المستوى العلمي الديني . يخلد اسمه وذكره كتابه المشهور بفتح المعين فى الفقه الشافعى العظيم على وجه خاص . والشيخ زين الدين الثانى تولد فى تشومفال قريب من وداكرا شمال مليبار سنة ١٥٣٢ع . وكان أبوه الشيخ محمد الغزالى ثالث أبناء الشيخ المخدوم الكبير . توفى رحمه الله فى صغر المخدوم الثانى . فنشأ وترعرع فى حضانة عمه الشيخ عبد العزيز وتربيته فى فنانى وتعلم منه العلوم الإبتدائية . ثم سافر إلى مكة المكرمة مقتفيا آثار جده للتعليم الأوسع . وقضى فى حرمها الميمون عشر سنوات متوالية فى التعلم والمطالعة . كان الشيخ ابن حجر الهيتمى رحمه الله أستاذه به . وتلمذ هكذا على علماء أجلاء كثيرة مثل شيخ الإسلام عزالدين بن عبد العزيز والعلامة وجيه الدين عبد الرحمان بن زياد رحمه الله.

تولى الشيخ زين الدين المخدوم الثانى مسؤولية التدريس فى الجامع الكبير الفنانى من عمه بعد ما رجع من مكة المكرمة . وبعده طار صيته فى الآفاق وتدفق الطلاب اليه من الأقطار كلها . وقضى الشيخ أيامه فى الجامع متلبسا بنشاطات مختلفة فى التدريس والتصنيف . ألف الشيخ عدة كتب فى فنون متنوعة مثل إرشاد العباد والاجوبة العجيبة واحكام النكاح والمنهج الواضح. فكتابه تحفة المجاهدين فى بعض أخبار البرتغاليين يعد أول كتاب صنف فى تاريخ كيرالا، الا أن مضمونه المهم تحريض المسلمين على محاربة البرتغاليين الظالمين.

والأسرة المخدومية قد أنجبت أيضا ابناءها العباقرة الأجلاء العديدة .كلهم حازوا مكانة مرموقة ومراتب علية فى ميادين العلوم الإسلامية فى بثها ونشرها فى عدة مناطق مليبار المسلمة.

فالجامع الكبير الفنانى قد استمر طيلة قرون ذا نور ساطع ومصباح مضيئ فى تنمية العلوم الدينية وتوسيع نطاقها وتوليد أبنائها حتى طلوع القرن العشرين الميلادى . والعلماء البارزون الدينيون كانوا يتخرجون من دراستهم الرسمية بعد ما يجلسون حول المصباح المعلق وسط قاعة الجامع . ولما أسست المعاهد الدينية والكليات الجديدة اعتمد الطلاب عليها وانصرفوا اليها فاضمحل معالم فنانى واندرست آثارها على ممر الزمان . فلا جرم أن تاريخ المسلمين فى كيرالا , تاريخهم العلمى والدينى على وجه خاص لا يتم إلا بذكره.